الفصل الخامس

تطور الدراسات الإستشراقية حول حياة رسول الله

تناولنا في الصفحات السابقة عددا من الاهتمامات الرئيسة التي توجّهت اليها مساهمات المستشرقين، وبيّنا خلال مراحل تاريخية مختلفة الإتجاهات البارزة لكل مدرسة من المدارس الإستشراقية فيما يتعلق بالتراث العربي الإسلامي الوسيط. وبقي علينا التعرف على تطوّر الأفكار والتفسيرات والرؤى الإستشراقية في واحد من الموضوعات المهمة جداً في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ البطولات الإسلامية الا وهو حياة الرسول الكريم وشخصيته ودعوته وسيرته وأخلاقه وشمائله؛ ويرجع السبب الرئيس الذي حدا بنا على اختيار هذا الموضوع، من بين الموضوعات الكثيرة التي أثارت اهتمامات المستشرقين، هو أنه يعدّ من أبرز الموضوعات التي تكثّفت حولها الدراسات وانشدّت إليها أقلام المستشرقين من مؤرخين وأدباء وفلاسفة. والواقع لعلنا لا نغالي القول بأنه من النادر أن نقرأ مساهمة أي مستشرق عن التاريخ الإسلامي ولم يتناول حياة الرسول وشخصيته وسيرته أو الدعوة الإسلامية في سنيها الأولى سواء أكان ذلك عن طريق تأليف كتب مستقلة عنه أم في تخصيص فصول كاملة من دراسات ومؤلفات عامّة عن التاريخ الإسلامي هذا من جهة. أما من الجهة الأخرى فالقصد من وراء ذلك توضيح الدوافع التي دفعت الغربيين إلى التوجه في البحث عن هذا الموضوع وعن الاهتمام به؛ وكذلك تشخيص التخرصّات الإستشراقية والتفسيرات المضادة للدعوة الإسلامية فضلا عن ابراز التطورات التي طرأت على أفكار المستشرقين وكتاباتهم وتفسيراتهم لهذا الميدان. تلك التحولات والتطورات التي جاءت هي الأخرى مرتبطة وموافقة للتحولات السياسية لوجهات نظر الساسة الغربيين ومصالحهم تجاه العالم الإسلامي وسياسات العالم مع الشرق.

هنا أيضاً يمكننا القول بأن دراسات المستشرقين عن حياة الرسول الكريم هي الأخرى قد مرّت بعدد من المراحل التاريخية، وقد تميّزت كلّ مرحلة من هذه المراحل بظهور قدر ما من الدراسات الإستشراقية تحمل إلى حدّ ما مزايا وسمات واضحة وربما قواسم مشتركة.

المرحلة الأولى:

وتغطّي الحدود الزمنية لهذه المرحلة مدة العصور الكنسية والأوربية الوسطى. حقاً إنه من الصعب عد الكتابات التي أفرزتها هذه المرحلة ولاسيما المدة الكنسية ضمن الدراسات الإستشراقية الحديثة المتخصّصة، وذلك لأنها مساهمات وكتابات قد افتقرت إلى منهج علمي وابتعدت كثيرا عن الموضوعية. لكنها ـ في الوقت نفسه ـ تمثّل في حقيقتها البدايات الأولى لطبيعة التطوّر الأوربي وفهمه للتاريخ الإسلامي الوسيط بصورة عامة والدعوة الإسلامية وشخصية الرسول الكريم بشكل خاص، فالعقلية هي نفسها تمثّل العقلية الغربية. كما أنها وعلى الرغم من افتقارها إلى الموضوعية والعلمية، وعلى الرغم من قصورها في الإستناد الى المؤلفات الإسلامية الأصلية، كانت بمثابة الأسّس التي ارتكّزت عليها العديد من التفسيرات والآراء الإستشراقية المتأخرة ـ دون مبالغة ـ والآراء والتفسيرات والتصريحات والرسوم الكاريكاتيرية الحديثة والمعاصرة. وظلّ تأثيرها يحتل نصيباً مهماً ـ علي الرغم من صغر حجمه ـ في كتابات وتفسيرات بعض المستشرقين في الحقب الحديثة والمعاصرة.

لقد شهدت مدة سيادة الكنيسة والعصور الوسطى حدثاً سياسياً بارزاً لا في أوربا فحسب بل بالنسبة للعالم العربي والإسلامي ذلك المتمثّل بالحروب الصليبية ولاسيما في مضمونها السياسي بوصفها واحدة من تلك المحاولات المتكرّرة التي قام بها الغرب المسيحي من أجل الإستحواذ والسيطرة على الشرق. كما أنها كانت رد فعل لعوامل وظروف عدّة دينية وسياسية واقتصادية، ومن ثم فقد جلبت معها ـ وخلال حقب تاريخية غير قصيرة ـ نتائج سلبية وإيجابية، ومن هذه النتائج ما يتعلق بالجوانب الثقافية والفكرية، توجّه أقلام عدد من الكتّاب والأدباء الأوربيين للبحث والكتابة عن تاريخ المنطقة التي كانت مسرحاً لعمليات حربية مستمرة وطويلة. ومن ثم دفعتهم إلى دراسة أحوال الشرق الإسلامي السياسية والدينية والإجتماعية فصار ميدان بناء على ذلك الدعوة الإسلامية وحياة مؤسس الدولة العربية الإسلامية الرسول الكريم من أهم الموضوعات التي استهوت أنظار أولئك الكتّاب. فلقد كانت الحروب الصليبية وفي اطارها ومضمونها الخارجي الظاهري حروباً دينية، فقد كان العامل الديني هو المحفّز الأساس لجمع وتحشيد الكثير من الصليبيين ولاسيما أولئك الذين شكلّوا الحملات الصليبية الأولى. ومن هنا فقد ترتّب على هذا أمران متلازمان الى حدّ كبير:-

أولاً :- كان الأوائل أو الروّاد الذين كتبوا عن تاريخ هذه المدة المبكرة من تاريخنا العربي الإسلامي من رجال الدين والرهبّان المتشددين والمتعصبين ضدّ الدين الجديد المنافس للمسيحيو وحسب تصوّرهم.

ثانياً :- وكان أهم الحلقلت التاريخية التي توجهت إليها اهتماماتهم وأقلامهم دراسة الأحوال الدينية للعالم الإسلامي، بسبب من أن الدين كان محفزاً مباشراً للمحاربين المسيحيين. لذا واعتماداً على ما ذكر آنفا فلعله من الصحيح القول بأن كتابات ومساهمات هذه المرحلة قد اتّسمت بعدّة سمات منها :-

١- التطرف الشديد في عرض الآراء والأفكار والتفسيرات المعادية للرسول الكريم والقرآن الكريم والدعوة الإسلامية، إنطلاقاً من فلسفة الكنيسة وتوجهها ضدّ الدين الإسلامي.

٢- الجهل البيّن بالكثير من المظان العربية الإسلامية عن هذا الموضوع ولا سيما الجهل بمؤلفات السيرة النبوية والحديث الشريف والحوليات التاريخية الإسلامية، فضلا عن جهل أولئك الكتّاب باللغة العربية، الأمر الذي أدّى إلى عدم تفهمهم المروايات التاريخية ومن ثمّ إلى إصدار أحكام قاطعة لكنها مشوهة عن الإسلام.

٣- غلبة الطابع الأسطوري والقصص الخيالي (غير الواقعية) على معظم تلك الإسهامات، ولعله من غير المبالغ القول بأن بعض هؤلاء الكتّاب قد اعتمد في معلوماته على عدد ضئيل جدا من المراجع الإسلامية. فضلا عن أن هذا النفر القليل كان غير ثقة في نقله المعلومات أو في ترجمته لأيات من الذكر الحكيم وفي طرحه الروايات الإسلامية إذ حرّف وشوّه وأساء عرض هذه النتف من المعلومات وحوّرها وكتبها بصيغ وأشكال بعيدة كل البعد عن حقيقتها. فضلاً عن ذلك فإن هذه المعلومات قد وصلت إلى أوربا عبر بيزنطة وهنا أيضاً قد تعرّضت وخلال هذه العملية إلى إضافات وزيادات وتحريفات واعتمدت الأساطير والخرافات أساساً.

تركّزت الكتابات التي أنتجتها مدة الكنيسة والعصور الوسطى الأوربية بالدرجة الأولى على شخصية الرسول الكريم ونبوته وسيرته وعلى القرآن الكريم وهل كان كتابا سماويّا ؟ وبشكل عام فقد نحى هؤلاء الكتّاب منحى التشكيك فشكّوا بمصداقية وصدق وإمانة الرسول وشكّوا بنبوته وبالدعوة الإسلامية وبالقرآن الكريم. وهذه مسألة

هامة ترتبط كما قلنا بالعامل المحرّك للصراع الصليبي الإسلامي فابتدعوا واخترعوا اخباراً من وحي بعض القصص التاريخية أمثال قصة الناسك المسيحي بحيرى وعلاقة ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة بالنبي محمد؛ لأنهما كانا من القصص التي يقصد من ورائها إظهار التأثير الديني المسيحي على الإسلام. وبالنتيجة فقد شوّهوا تاريخ السيرة النبوية الشريفة وشوّهوا اسم الرسول الكريم نفسه في هذه الكتابات فكان اسم النبي قد حرّف تعمدا، ليكون عندهم على صيغ وأشكال منها :-

Methomus و Maomatto و Mamutius و Mahound والمهم فهذه التعبيرات لم تأت أعتباطاً بل لأنها تحمل معان توافق الخطّ التبشيري والديني الذي سار عليه هؤلاء الكتّاب في كتاباتهم فكلمة Mahound و Mamutius[1] تعنيان في اللغة اللاتينية (إله الظلام). كذلك فقد تخيلوا قصصاً غريبة حول موضوع الوحي ونزول الآيات القرآنية الكريمة على الرسول الكريم عن طريق جبرئيل. ويعد دانكونا D,Ancone من أوائل الذين كشفوا عن هذه التخرصات والكتّاب المنادين بهذه الآراء المتطرّفة والمعادية في دراسته القديمة باللغة الإيطالية الموسومة بـ (أسطورة محمد في الشرق) La Laggende di Maomatto im Occidenta، ثم توالت الدراسات وأخذت تتركز أكثر في كتابات جيوبرت وهيلدبرت .Guibert of Nogent. Hildbert of Tours

وكلاهما من رجال الدين المتعصبين ويمثّلان القرن الحادي عشر للميلاد، ثم ظهر تمثل هذه الآراء في كتابة الراهب بطرس الناسك[2] ويعقوب الفيتري Jacques de Vitry في القرن الثالث عشر ويبدو أن ما ورد من تفسيرات وقصص في مؤلفات أولئك الكتّاب قد أثرت كثيراً على عقلية الفرد الاوربي وازداد الاعتماد عليها حتى أن دانتي الشاعر مثلاً قد صوّر الرسول الكريم تصويراً حاقداً. ولم يقف مدى تأثيرها على القرون الوسطى فحسب بل امتدّ أيضاً حتى القرن السابع عشر للميلاد. وبعد أن توسع

(١) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية ص ٣٣-٤٠.

Gabrieli, F: Muhammad and the Conqusts of Islam.Trans. by Iulling and Linell (London 1968)p. 14.

(2) Danial, N: Islam and the West (1960) p. 28,78.

مكسيم رودنسون: ص ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩.

Southern R: Western Views Islam in the Middle Ages (Harvard 1962) p. 24,28,30.

159- Holt: op cit., p. 291.

الأفق الأوربي واتسعت مجالات وعيه الثقافي وظهرت بوادر النهضة الأوربية علمياً وفكرياً وبعد أن تم اكتشاف والعثور على العديد من المخطوطات العربية الإسلامية عن حياة الرسول والدعوة الإسلامية بدأ العلماء الغربيون ـ على الرغم من بقاء مؤثراتها ـ ينأون بجانبهم عن تلك التخرصات. فالذي يقرأ كتاب المستشرق البريطاني همفري بريدو الموسوم بـ (حياة محمد)، H.Prideaux (The Life of Mohummed) يجده مملوءا بتخرصات وتفسيرات الرهبان في العصور الوسطى. والواقع أن بريدو هو الآخر كان راهبا وعمل في كنيسة السيد المسيح في أكسفورد، ثم انتقل إلى مناصب دينية مختلفة. ويتّضح تفسير بريدو للدعوة الإسلامية ونبوة الرسول الكريم بمجرد قراءة عنوان كتابه الذي نشر في سنة ١٦٩٧ وهو (الطبيعة الحقيقية لدجال كما صور بوضوح في حياة محمد). وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية. فهو يفسر الدعوة الإسلامية بوصفها انتقاما أرسله الربُّ لما شهدته الكنيسة الشرقية من انقسامات ((فالربُّ هو الذي أرسل السراسين (أي العرب) ليكونوا أدوات غضبه ضدّ المسيحيين المنقسمين على أنفسهم وهؤلاء السراسين سرعان ما سيطروا على المقاطعات الشرقية للإمبراطورية الرومانية ويرافقهم التدمير والتخريب)). وكتابه ينقسم على قسمين الأول خصّصه للحديث عن حياة الرسول، وعلى الرغم من استشهاده بحوالي ستة وثلاثين كتاباً عربياً مصادر للكتابة عن سيرة الرسول فإنه لم يستند اليها جميعاً بل اكتفى بنقل مقتبسات قد تمّ ذكرها في بعض كتب المستشرقين أو كترجمات لبعض المؤلفات العربية[(١)]، أمثال كتاب ابن العبري وابن المكين. وقد ظهرت مثل هذه الآراء في مؤلفات أخر، فقد ترجم الكسندر روس القرآن الكريم بعنوان(قرآن محمد) وهو يشير بوضوح إلى تفسيره The Alcoran of Mahomet وأفرد ملحقاً لترجمة سيرة حياة النبي محمد مملوءا بالتخرصات والقصص الخيالية. ثم استمر تأثير آراء العصور الكنيسة والوسطى يتكرّر ظهوره على كتابات بعض المستشرقين في القرن التاسع عشر وحتى في القرن العشرين.

كانت تلك الكتابات التي عرضت آراءً وتفسيرات عن الدعوة الإسلامية وحياة الرسول والقرآن الكريم وهي ممزوجة بكثير من القصص الخيالية التي لم تستند الّا الى أدلّة تاريخية ضعيفة في مصداقيتها وتعدّ محاولة ـ على الرغم من بدائيتها وسذاجة أفكارها ـ لدراسة وتفهّم أحوال العالم الذي انشغلت به أوربا في تلك العصور. وقد

---

(١) طبع في لندن عام ١٦٤٩، أنظر

Holt:Op.Cit., p. 293.

فنّد عدد من المستشرقين المحدثين تلك التفسيرات والترهات الكنسية في أوربا الوسيطة وأظهروا خطأها أمثال ما قام به المستشرق غرونباوم ومونتغمري وات وكبريلي وآخرون. وقد أشار بعضهم إلى أهم الدوافع التي شجعت على ظهور مثل هذه القصص الخرافية والتفسيرات وأنها كانت تستغل كمحفزات فعاّلة لإمداد الجندي أو المقاتل الصليبي في ساحة المعركة. ومع كل ذلك فإن تلك الكتابات قد أنتجت آثاراً بعيدة وسيئة وما زالت إلى حدِّ الآن تحتّل مكانة غير قليلة الأهمية من حيث رسوخها وثبوتها في ذهن الفرد الأوربي. ومما يجدر ذكره أيضاً أن هذه المدة شهدت محاولات عدّة لترجمة القرآن الكريم. كما سنشير إليه في فصل خاص لاحق. والذي يتصفح نتاجات المستشرقين في القرن السابع عشر مثلاً يجد ترجمة القرآن كانت من بينها. وأن هذه الترجمات لم تكن موثوقة فقد دخل إليها الكثير من التحريفات والتشويهات المقصودة؛ لأنها لم تعتمد نسخة القرآن باللغة العربية وإنما نسخة مترجمة إلى اللغة اللاتينة.

المرحلة الثانية :

لعله من المفيد القول بأن من السمات الفكرية البارزة التي اتّصف بها كل من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولا سيما في أوربا بروز المدارس الفكرية والفلسفية، ولاسيما في ألمانيا وفي فرنسا أمثال المدرسة العقلية. إذ ركّز أنصار هذه المدرسة كثيراً على مبدأ النقد والتحليل والمقارنة في أبحاثهم وآرائهم أكثر من تأكيدهم المسائل التي كانت مسيطّرة على أفكار وكتابات العصور الكنسية والوسطى. فلقد أثارت فلسفة الشكّ التي نادى بها ديكارت في تصنيفه العلوم الحقيقية ضمن دائرة المعارف الإنسانية وجعله الفلسفة والرياضيات والفيزياء علوماً فعلاً غير أنه استبعد التاريخ والعلوم الإجتماعية من هذا التصنيف العلمي فأثار ذلك حفيظة المؤرخين المعاصرين له وأدت إلى ظهور أزمة في الكتابة التاريخية. هنا برز اتجاه بين صفوف المؤرخين مستفيداً من الإنتفاع من مناهج وأساليب النقد والتحليل والمقارنة في الكتابة التاريخية كردٍّ فعل على موقف ديكارت المناهض للتاريخ.

والمسألة الأخرى التي أفرزتها أفكار عصر النهضة الأوربية هي تغير النظرة إلى التاريخ أيّاً كان، فبعد أن كان خاضعاً لتأثيرات رجال الكنيسة ومن ثم كان معبّراً مباشراً عن فلسفة المشيئة الإلهية، تحوّل في عصر النهضة الأوربية ليكون دراسة

اجتماعية وليس لاهوتية[(١)]. وبذلك أجريت عملية تنقيح للمادة التاريخية التي سبق أن كتبت في أثناء حقبة الكنيسة والعصور الوسطى تنقيحاً تاما من الخرافات والأساطير. لذا أثرت هذه التطوّرات الفكرية والثقافية والتطوّرات في الكتابة التاريخية على الدراسات الإستشراقية أيضا سواء أكانت التاريخية منها أم الأدبية. وظهر نتيجة هذا تقويم جديد للتاريخ العربي الإسلامي وتاريخ السيرة النبوية وشخصية الرسول الكريم. فصار الرسول في نظر المستشرقين الذين اشتهر بهم عصر التنوير The Enlightenment مثلاً مصلحاً علمانياً غير مسيحي قاد أصحابه ومؤيديه من أجل التحرّر من التعاليم اللاهوتية الغامضة. كما برزت صورة جديدة لشخصية الرسول وسيرته وأخلاقه وشمائله ودعوته تخالف تخرصات رجال الدين في عصر الكنيسة والعصور الوسطى، على الرغم من أن مؤرخي عصر التنوير قد نظروا إلى العصور التي سبقت عصرهم، وإلى المؤلفات التاريخية التي كتبت عن الماضي البعيد نظرة ازدراء وسخرية. هذا إلى جانب التغييرات السياسية التي شهدتها أوربا بالنسبة إلى علاقاتها بالشرق إذ زاد اهتمام الدول الأوربية المتنافسة منذ القرن السادس عشر للميلاد بالمنطقة لأغراض تجارية وسياسية وإستراتيجية الأمر الذي وجّه الدراسات الإستشراقية وجهة يسودها طابع الإيجابية إزاء موضوعات التاريخ الإسلامي الوسيط، ولعل من أبرز من يمثل هذا المتغير المستشرق الفرنسي كونت هنري دي بولنفييه Count H- de Boulainvillers. (1658-1722) إذ نشر كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه Vie de Mahomet (حياة محمد) سنة ١٧٣٠ وترجم بعد ذلك إلى اللغة الإنجليزية بعنوان The Life of Mahomet، ورفض فيه بولنفييه البديهيات والتفسيرات التي كانت سائدة في كتابات رجال الدين في العصور الوسطى بشأن الرسول الكريم بوصفه بربرياً قاسياً وفاسداً ومبدعاً. مع أن المؤلف يميل إلى إظهار فضل المسيحية على الإسلام، لكن ليس هناك تطرّف في وجهة نظره إذ يقول ما نصّ ترجمته: ((إن كلّ ما جاء به محمد من مبادىء دينية هو صحيح لكنه لم يأت بكل ما هو حقيقة وهذا هو كل الاختلاف بين ديننا ودينه[(٢)]). ومع كلّ هذا فإن دي بولنفييه لم يعتمد في كتابه الذي وقف به عند السنة الخامسة الهجرية ـ على المظان

---

(١) ينظر كولنجوود: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل (١٩٦٨) ص١٢٢، ١٢٧-١٣٨، د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ص ٣٨-٣٩، ٤٣-٤٤، ٤٨-٥٠، ٥٢-٥٣.

Holt:Op.Cit., p. 300.

(٢) مكسيم رودنسون، ص ٦٦-٦٧.

الإسلامية الأصلية - واكتفى بالاعتماد على ما ورد في الكتب الأجنبية من ترجمات ونصوص عنها. كذلك بالإمكان الإشارة إلى ما كتبه المستشرق الفرنسي الآخر ليبنز Leibniz في كتابه الذي يظهر رأي المؤلف من عنوانه (ليس محمد مبدعاً) Mahomet no impostor[١] فالمؤلف دافع عن الرسول وفنّد الآراء التي إذاعها مؤلفو العصور الكنسية والوسطى.

لكن هذا ينبغي أن لا يدفعنا إلى تعميم الإتجاه على جميع إنتاجات هذه المدة التاريخية بشأن رسول الله والدعوة الإسلامية بوصفها تحمل رأياً إيجابياً. إذ ظهرت بعض الكتابات التي تعرّضت للنبي سلبياً ووجهت إليه انتقادات سياسية متطرّفة تتركّز على النجاحات الكبيرة التي حقّقها أوالتي أحرزتها الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة. ولكنها آراء تخالف تصورات رجال الدين السابقة، فالكاتب الفرنسي المشهور فولتير Voltaire قد سلّط سيفه اللاذع ضدّ الكنيسة والآراء التي أدلى بها رجال الدين الكنسيون؛ وكان معجباً بالحضارة الإسلامية وقد أثنى على الرسول الكريم من الناحية السياسية واصفاً إياه بأنه ((رجل سياسة ومؤسّس لدين عقلاني))، قالها في أثناء كتابته عن الرسول بعنوان Mahomet وكذلك في مقالته عن الأخلاق Sur Les Mours[٢]. لكنه، ونتيجة للخطّ الفلسفي الذي اتّبعه وبقية مؤلفي عصر التنوير المتمثل بالهجوم العنيف على الكنيسة وإبراز مساوئها ومفاسد رجال الدين بطريقة ساخرة، رأى الرسول وكأنه قد استغل الدين للتغرير بالناس الذين كانوا منقادين للأساطير والخرافات. كما أن المستشرق الفرنسي الآخر وهو جي جانيه J.Gagnier قد كتب كتاباً يعدّ في نظر بعض المستشرقين المحدثين من الكتب التي تتصّف بالعلمية نظراً لاعتماد مؤلفه على المصادر الإسلامية الأصيلة. وعنوان كتابه Vie de Mahomet (حياة محمد) بجزأين. ففي مقدمته للجزء الأول ردّ على آراء المستشرق المبشر البريطاني بريدو والمستشرق الفرنسي دي بولينفييه. وردَّ بصورة خاصة على وجهة نظر الأخير الإيجابية إزاء الرسول عادا كتاب دي بوليفنييه كتاباً (رومانتيكياً) أكثر منه كتاباً تاريخياً[٣].

---

(١) مكسيم رودنسون ص ٦٦.

(2) Gabrieli, F.p. 16-17; Andrae: Tor: Mohammed the man and his Faith (1956) p. 174.

(3) Holt: P, 299,300.

Ibid.,P. 299; Gabrieli, p. 16.

وفي هذه المدة ايضاً ظهرت ترجمة جيدة للقرآن الكريم نهد بها المستشرق البريطاني جورج سيل G.Sale وحلّت محلّ الترجمات السائدة آنذاك كترجمة الكسندر روس وكلونياك Cluniac وخوان سيجوفيا Juan of Segovia؛ وذلك بسبب جودتها وجودة الترجمة من اللغة العربية مباشرة إلى الإنجليزية؛ واعتماد المؤلف الدقّة إلى حدّ ما في ترجمة الآيات القرآنية الكريمة. وترجمة سيل لم تكن أوضح وأشمل وأدقّ من الترجمات التي سبقت فقط بل إن المؤلف قد استند إلى التفاسير والشروح الإسلامية المتوافّرة لتوضيح معاني الآيات. ثم قدّم مقدمة تاريخية تطرّق فيها إلى الدين الإسلامي ومبادئه[1] وأركانه وإلى السيرة النبوية.

ولم يقتصر هذا الموقف الإيجابي إزاء الرسول والدعوة الإسلامية على مؤلفي عصر التنوير بل إن المدة التي أعقبت ذلك والتي يطلق عليها بالمدة الرومانتيكية Romantic Epoch قد أنتجت هي الأخرى عدداً من المساهمات الإستشراقية الإيجابية. والمعروف أن أنصار الرومانتيكية في أوروبا قد نظروا إلى الماضي والأحداث التاريخية الماضية بعين العطف والحبّ بخلاف النظرة التي نظر إليها كتّاب مدة التنوير. فالرومانتيكيون رأوا في التجارب التاريخية البعيدة والقريبة إلى حقبتهم أنها تعبير عن جهود إنسانية قيّمة، وأن الماضي وأي مدة منه تتضمّن قيمة دائمة في نفسها وتمثّل حلقة متصلة بالحلقات الأخرى السابقة والتالية. من هنا فإن كتّاب المدة الرومانتيكية بخلاف كتّاب مدة التنوير لم يهملوا الماضي أو يسخروا منه كما فعل التنويريون ومن ثم لم يركّزوا على الدعوة الإسلامية والرسول من النواحي السياسية فحسب بل حاولوا دراسة موضوعات عدّة مؤكدين فيها أخلاق الرسول الحميدة وأمانته وصدقه وخلقه السامي وصدق دعوته. وتتضح هذه النزعة في الكتابة بوضوح في كتاب المؤرخ الإسكتلندي توماس كارليل T.Carlyle الموسوم بـ (حول الأبطال وعبادة البطل) On the heroes and heroworship الذي نشر في سنة ١٨٤٠ ثم ترجّم إلى اللغة العربية بعنوان (الأبطال). وقد أحرز كتاب كارليل عن الرسول الكريم على تأييد وسمعة واسعتين في الشرق وفي أوربا على السواء. والملاحظ أن كارليل لم يختلف عمّن سبقه من الكتّاب من الناحية المصدرية واعتماده على ما توافّر من مصادر إسلامية قليلة، لكنه يخالفهم في وجهة النظر. فصوّر الرسول تصويراً بطولياً ممتدحاً إلى درجة كبيرة أخلاقه وأمانته وصدق دعوته، ووصفه بأنه كان الموقظ الملهم لشعبه.

(١) مكسيم رودنسون ص ٥٤.

وفي الوقت نفسه فإنه تعرّض لكتابات العصور الوسطى ووقف منها موقفاً معارضاً، فيقول مثلاً ما نصّه : ((ويزعم المتعصّبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بثورته إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان، كلّا وأيم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن القفار والفلوات، المتوقّد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبرّاً وحكمة وحمى وأربة ونهى ـ أفكار غير الطمع الدنيوي ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلّا أن يكونوا مخلصين جادّين. فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ترى محمداً لم يرض أن يلتفع بمألوف من الأكاذيب أو يتوشح بمطبع الأباطيل[١])، إنه ليس صدفة تشخيص عدد من الكتابات الإستشراقية المشهورة عن الرسول قد أسهمت بها أقلام إستشراقية اسكتلندية فكارليل ومن بعده في التاريخ الحديث مونتغمري وات إسكتلندیان، وهما بالفعل قد صوّرا الرسول تصويراً بطولياً. لعله من الراجح الإستنتاج بأن الاسكتلنديين كانوا وما يزالون يفتخرون بماضيهم وبملوكهم وتقاليدهم وهم يكرهون الإندماج السياسي مع بريطانيا العظمى ويتطلعون دوماً للإستقلال. فالرسول الكريم عند كارليل هو الشعلة التي سقطت من السماء ليلقي بنورها على رمال الصحراء العربية المظلمة، وهدفه من ذلك جمع القبائل العربية الفقيرة والمتفرّقة في وحدة قوية كبيرة، ويقول أيضاً ما نصّه : ((إني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنّع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي لا يعوّل إلّا على نفسه ولا يدّعي ما ليس فيه، ولم يك مبتكراً ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً...[٢])).

واقعا هناك عوامل ساعدت على تطوّر الدراسات الإستشراقية وتطوّر وجهة نظرها إزاء التاريخ الإسلامي الوسيط، ومن بينها تزايد الاهتمام بتاريخ الشرق منذ نهاية القرن الثامن عشر. ثم العمل بجدية على تحقيق العديد من المخطوطات الإسلامية ونشرها أو ترجمتها إلى اللغات المختلقة. وتزايد الاهتمام بالدراسات اللغوية الشرقية ولاسيما اللغة العربية. وتنامي العلاقات السياسية والإقتصادية والعلمية بين الغرب والإسلام. فقد ساعدت هذه العوامل وغيرها على ظهور مادّة علمية تاريخية غنيّة

---

(١) توماس كارليل: الأبطال ص ٥١-٥٢، ٦٣-٦٤ (ترجمة علي أدهم).

(2) Fuck, op. Cit., 305; Gabrieli p. 17-18.

Dunlop: "Some remarks" p. 316.

للمستشرقين والمهتمين بتاريخ المسلمين؛ ومن ثم ظهور وجهات نظر وتفسيرات جديدة عن الدعوة الإسلامية. فكتب غوستاف سيمون فايل G.Weil في ألمانيا كتاباً عن النبي محمد وحياته ودينه معتمداً على سيرة ابن هشام، فضلاً عن ذلك فإنه ترجم سيرة الرسول لابن هشام وسيرة الرسول لابن اسحق[١] إلى اللغة الألمانية. وقام نولدكه في سنة ١٩٦٠ بترجمة القر،رآن الكريم إلى اللغة الألمانية وأطلق على الترجمة تاريخ القرآن Geschischte der Qoran. كما أنه كتب كتاباً عن حياة الرسول[٢]. ثم هناك كتاب الويس شبرنجر Aloys Sprenger الألماني الذي تأثر بمقدّمة ابن خلدون وتاريخه فكتب كتاباً عنوانه (حياة محمد وتعاليمه) Das Leben und die Lehre الذي نشر في ستينيات القرن العشرين. إذ حاول فيه المؤلف تفسير الدعوة الإسلامية تفسيراً عقلانياً على أنها نتاج لروح العصر. وهو هاهناعلى خلاف نظرة الرومانتيكيين، فيقول البروفسور فوك Fuck إن شبرنجر على الرغم من كونه قد قلّل من أهمية وفعّالية الدين الذي جاء به الرسول، والدور الذي قام به الرسول الكريم (حسب رأي المستشرق) لكنه لم يسيء فهم أهمية الدين الإسلامي في العصور[٣] الأوربية الوسطى. وظهرت في هذه المدة دراسة المستشرق الإسكتلندي السير وليم موير William Muir الموسومة بـ (حياة محمد وتاريخ الإسلام) Life of Mahomet and History of Islam ومع أن موير اعتمد على المصادر التي اعتمد عليها شبرنجر أمثال (تاريخ الرسل والملوك) للطبري، (والكامل في التاريخ) لابن الأثير ومؤلفات السيرة النبوية لابن هشام وابن اسحق لكنه نظر إلى الرسول بمنظار تعصّبه الأرثوذكسي الصليبي حينما عدّ الرسول أداة من أدوات الشيطان، وحينما قلّل من أهمية الحضارة العربية الإسلامية وأنكر أصالتها. وقد توصل - بتفاؤل - إلى استنتاج مستقبلي مفاده بأنه سيأتي اليوم الذي يتحوّل فيه المسلمون إلى المسيحية[٤] وهو تفاؤل لم يتحقّق بل تحقّق خلاف ذلك بدخول الإسلام الى أوربا كدين ثاني، ولهذا المؤلف كتاب آخر عن الخلافة عنوانه ظهور

(١) العقيقي: المستشرقون ج٢ ص٧٠٨.

(2) Gabrieli p. 18.

(٣) د. جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام ص٩

Fuck, op. Cit, p. 305.

(4) Fuck. P. 305.

Gabrieli, p. 18.

وانحطاط وسقوط الخلافة.

The Caliphate, Its rise, Decline and Fall

المرحلة الثالثة :

شهدت مدة القرنين التاسع عشر والعشرين تطوّرات هائلة متمثّلة بالقفزات السريعة التي طرأت على عالم الصناعة والتكنولوجيا والعلوم المحض كالرياضيات والفيزياء والعلوم التقنية والفلسفية. وقد أثر هذا التقدم تأثيراً ملموساً على التكوين الإجتماعي والإقتصادي لمجتمعات أوربا، فتنامت المدن وأخذت تؤدي أدواراً مهمة وتنامت الفوارق الطبقية بأستحكام الرأسمالية وزيادة نفوذ استثماراتها واحتكاراتها، وتنامت الطبقة العمالية حجماً وقوة. هذه التطوّرات العلمية والصناعية والإجتماعية قد أعطت دفعاً جديداً للدراسات الإجتماعية ومن بينها الدراسات التاريخية في أوربا ومن ثم الدراسات الإستشراقية. فالمتتّبع للإسهامات الإستشراقية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين والواحد والعشرين يشخّص فيها تطوّراً يتمثّل بزيادة الاهتمام في ملاحقة البحث للعثور على المخطوطات الإسلامية وتحقيقها ودراستها لا في حقل التاريخ الإسلامي فحسب بل في حقول المعرفة الإنسانية المختلفة. وكذلك يتمثّل باعتماد تلك الدراسات على مصادر إسلامية أصيلة كثيرة، فضلا عن وذاك يتمثّل بظهور عدد من الدراسات الموضوعية الهادفة. صحيح أن الدراسات التي تمّت في المدد السابقة صارت مراجع يعتمد عليها وأخضعت الآراء الواردة فيها للمناقشة؛ لكن أغلبها كان يعوزه الهدف والفكرة ضمن الخطّ الإستشراقي عدا ـ بطبيعة الحال ـ الهدف الديني الواضح. في الوقت الذي أخذت فيه الدراسات الإستشراقية في هذه المرحلة تميل إلى مذاهب ومدارس وأغراض مؤشرة فصار لها مناهج خاصة وأهداف متباينة. فمنذ الحقبة الثانية من القرن التاسع عشر تقريباً أخذت تظهر في سماء أوربا نتيجة للتقدم الصناعي، أفكار وحركات ثورية قادتها الطبقة العاملة التي قاست الأمرّين من جراء تزايد حجوم الرأسماليين وأرباحهم ومن جراء الكساد الذي عمّ أوربا نتيجة للحروب النابليونية، ومن جراء عدم عدالة توزيع الثروات. فثورات النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعدّ صورة واضحة للظروف الثورية التي عاشتها أوربا، وقد برزت هذه التطورات في توجيه بعض الدراسات الإستشراقية ومنها التي أنجزت عن الرسول الكريم أمثال كتاب هيوبرت جريم Grimme (محمد) Mohammad الذي نشر في سنة

١٨٩٢ فقد ركز المؤلف على الجوانب الإجتماعية التي نهد بها الرسول. ورأى جريم في الرسالة الإسلامية (ويشير المستشرق هنا إلى الرسول بأنه مؤسس الديانة الإسلامية) لم تكن رسالة دينية بل هي رسالة إجتماعية في أصولها وطبيعتها. لذا فهو يرى التبشير بالدعوة الإسلامية كان ردُّ فعل للحقد والسخط الكبيرين على عدم تحقّق العدالة في توزيع الثروات. فانطلقت من الرغبة المتأجّجة في نفوس الناس لإيجاد مجتمع إنساني آخر يحلُّ محلّ المجتمع المكّي المعقد، وعلى هذا فالثورة الإسلامية بالنسبة إلى جريم[(١)] هي في حقيقتها ثورة البروليتاريا .Proletarians of Arabia arise وقد تطرّف جريم كثيراً بتركيزه على الجانب الإجتماعي الطبقي للدعوة الإسلامية وتجريدها كليّاً من مقوماتها الدينية وأساسها الروحاني والديني، ونعتقد بأنه من الصعب جداً في الدراسات التاريخية وضع الثقل الأساس والمطلق على عامل واحد دون العوامل الأخرى. وقد انتقد لامانس وجهة نظر جريم قائلا: قد بالغ كثيراً في تفسيره. كما انتقده أيضاً سنوك هورجرونجيه Snouck Hurgronje في كتابه الموسوم بـ(قصة حياة محمد). أما هنري لامانس H.Lammens المبشر المستشرق المتعصّب فقد أولى اهتماما واضحاً بتأثير دور الحياة الإقتصادية والمدنية، فالدعوة الإسلامية في رأيه نتاج بارز للمجتمع الحضري التجاري المكّي. فهي دعوة لم تكن وليدة الظروف البدوية الصحراوية بل وليدة التطوّرات المالية المعقدة. والمعروف أن لامانس من المستشرقين المشهورين وكان يتقن اللغة العربية وله معرفة واسعة بالمصادر الإسلامية، وكتب عدداً من الموضوعات المختلفة عن الدعوة الإسلامية والرسول الكريم وأهل بيته وشخصيات إسلامية أخرى. ولكنه كان يميل إلى منهج الأخذ بالضدّ في كتاباته التاريخية فهو بادىء ذي بدء شكك بالحديث النبوي الشريف ومؤلفات السيرة النبوة وعلى هذا الأساس شكك بما ورد في تلك المؤلفات عن إمانة الرسول وصدقه؛ وأنكر المعلومات التي تفيد بأن الرسول الكريم كان يتعبد بغار حراء. وبّن آراءه هذه في بحثه حول (القرآن والحديث) و (محمد وأمانته) و (جمهورية التجّار في مكة). فهو مثلاً ينتقد الرسول الكريم ويميل إلى المكيين المعادين للدعوة الإسلامية، وهو أيضاً يفضّل الأمويين على غيرهم في دراساته عن معاوية الأول ويزيد بن معاوية. وهو أيضاً يرفض كل الروايات المتعلقة بالمدة المكّية للدعوة الإسلامية، ويتهجم على

---

(١) مكسيم رودنسون، ص ٨٩.

الرسول[1] بوصفه (Le Grand dormeur). وقد وجّه المستشرقون المحدثون للامانس إنتقادات عديدة فاعتقده مونتغمري وات قد بالغ كثيراً في تكذيبه مؤلفات السيرة والمعلومات التي وردت فيها. ووصفه آخرون أمثال بيكر Becker وشاخت بالتعصّب الديني مما أضعف قيمة آرائه. فهو بينما يتنكر لمؤلفات السيرة والحديث النبوي الشريف بوصفها تحتوي على مرويّات وكتب موضوعة ومشكوك فيها من جهة، لكنه يعتمد على عدد من تلك الأحاديث ويتقبل الروايات التي وردت في المؤلفات التاريخية التي تؤيد وجهة نظره من جهة ثانية. ومع هذا فإنه بالإمكان القول بأن تعصّب لامانس يمتّ بصلة إلى تلك الآراء التي دوّنت في أثناء العصور الكنسية والأوربية الوسطى وظلت تتكرر حتى الوقت الحاضر لكنها تختلف عن تلك باعتمادها مصادر إسلامية أكثر وباتباعها أسلوب النقد والتحليل. ثم هناك مسألة أخرى تتعلق بآراء لامانس، فهي بالإضافة الى أنها نتيجة لاتجاهه التبشيري فإنها نتيجة أيضاً للعلاقة الفرنسية العربية. فلامانس أولاً عاش مدة التصارع الطائفي في لبنان كما أنه صار المدافع عن السياسة الفرنسية وسيطرتها على أجزاء من المنطقة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وكتابه (سوريا) قد كتب بناء على طلب المقيم السامي[2] الفرنسي غورو .Gouraud فكتابات لامانس ومن بعده بلاشير Blaochere الفرنسي الذي كتب كتاباً عنوانه (مشكلة محمد) Le probiems de Mahomet لا تمثّل ردّة في التفكير الإستشراقي أو انتكاسة، بل تظهر بوضوح العلاقة بين الإتجاه السياسي لدول أوربية معينة وتطلعها إلى تأسيس مناطق نفوذ لها في البلدان الإسلامية وما يكتبه مستشرقوا تلك الدول. فالعلاقة بين العرب والمستعمرين الفرنسيين والبريطانيين بعد الحرب العالمية الأولى كانت سيئة لأن هؤلاء المستعمرين قد تنكّروا لوعودهم التي كانوا قد قطعوها للعرب قبل الحرب، فعندما تنكروا لتلك الوعود إشتدّت نقمة الشعب العربي ضد استعمار هاتين الدولتين فوجهوا ضربات عنيفة إليهم وعجّلوا في اندحارهم وتقهقرهم السياسي. فلم تكن إسهامات مستشرقي هذه المرحلة جميعها معادية للدعوة الإسلامية والرسول فهناك مثلاً دراسة ليون كيتاني Leone Caetani الذي كان يتمتع بمكانة مرموقة، وله معرفة جيدة بالمصادر الإسلامية إذ رسم كيتاني صورة إيجابية

(١) ج. عرفان عبد الحميد: المستشرقون والإسلام.

Gabrieli, p. 19; Salibi, op. Cit., 339.

(2) Salibi, p 331-332.

للرسول الكريم في كتابه (حوليات الإسلام) Annali dell" Islam وعده رجل دولة قدير، مع أنه أعطى أهمية كبيرة إلى العوامل الإقتصادية والسياسية في الدعوة الإسلامية على حساب[1] الدوافع الدينية. وأشاد المستشرق الدانماركي فرانتز بهل F.Buhl في كتابه (حياة محمد) بشخصية الرسول الكريم وصدق دعوته والنتائج التي حققها في مكة والمدينة. وكتب الأديب المستشرق الأمريكي واشنطن أيرفنج W.Irving كتاباً عنوانه (حياة محمد) إمتدح فيه شخصيته، وقد ذيلّ الكتاب بخاتمة شرح فيها مباديء الإسلام. ويعدّأرفنج أول مستشرق من أمريكا اهتم بالدراسات العربية والإسلامية، فقد جمع في كتابه عن سيرة الرسول الكريم المعلومات من الكتب التاريخية المختلفة وعرضها بأسلوب أدبي جميل وقد نشر الكتاب سنة ١٨٤٩، وما قاله هذا المستشرق عن الرسول ما ترجمته: ((وكانت جميع تصرّفات الرسول تدلّ على رحمة عظيمة)) وإنه كان سريع البديهة قوي الذاكرة واسع الأفق عظيم الذكاء وإنه كان عادلاً، فكان يعامل الأصدقاء والغرباء، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء على قدم[2] المساواة)). ويجدر الإشارة الى أن أرفنج كان متأثرا بالوصف البديع الذي كتبه الإسكتلندي توماس كارليل في كتابه المذكور آنفا بشأن رسول الله. وهناك أيضاً كتاب المستشرق الأسقف اللوثري تور أندريه Tor Andrae الموسوم بـ (محمد وعقيدته) Mohammad, the man and his Faith الذي نشر بالإنكليزية عام ١٩٣٦، وأولى المؤلف اهتماما واضحاً للمؤثرات الإجتماعية والإقتصادية في الدعوة[3] الإسلامية. كما أصدر المستشرق دي غويه De Goeje بمساعدة دي يونغ سيرة الرسول لابن هشام[4] في سنة ١٩٠٩. وتصل هذه الدراسات التي تحمل اتجاهاً إيجابياً إزاء الرسول الكريم ودعوته وسيرته قمّتها في جهود المستشرق الإسكتلندي مونتغمري وات M.Watt. وقد أفنى هذا المستشرق شطراً كبيراً من حياته العلمية في متابعة دراسة شخصية رسول الله وتتّبع مصادره، فصار متخصصاً في هذا الميدان. وبذلك تكتمل فكرة التطوّر الذي طرأ على

(١) د. جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام ص ١٠.

Fuck. Op. Cit., 310-311.

(٢) واشنجتون أرفنج: حياة محمد، ترجمة علي حسني الخربوطلي، القاهرة ١٩٦٦، ص١٥-١٦، ٢٩٥-٢٩٦.

(3) Gabrieli, p.20.

(٤) العقيقي ج٢ ص٦٦٥.

الدراسات الإستشراقية المتعلقة بالدعوة الإسلامية وحياة الرسول؛ تلك الفكرة التي نقلتنا من المرحلة التي ساد فيها التطرّف والتعصّب الشديدين ضد الرسول الكريم إلى التأييد والمدافعة الواضحة عن كفايته السياسية وحنكته وصدق نبوته وأخلاقه الرفيعة. وتعدّ المدة الواقعة بين سنة ١٩٥٠-١٩٦٠ مدة نشاط علمي في حياة المستشرق (وات) فقد نشر خلالها عدداً من الدراسات منها (محمد في مكة) Muhammad at Mecca عام ١٩٥٣ (وترجم إلى اللغة العربية)، وكتاب (محمد في المدينة) Muhammad at Madina المنشور عام ١٩٥٦ (وقد ترجم أيضاً إلى اللغة العربية)، ثم كتاب (محمد النبي ورجل الدولة) Muhammad Prophet and Statesman والمنشور عام ١٩٦١ (ولم يترجم لحد الآن). فضلا عن هذا فإن للمؤلف عدّة دراسات وأبحاث عن هذا الموضوع، وتتميّز دراسات (وات) بالدقّة والموضوعية وتنوّع المسح المصدري. فكان يرجع إلى المظّان الأصلية كالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ومؤلفات السيرة النبوية. ودافع عن إخلاص الرسول وعصمته ونفى جميع الإتهامات التي ألصقها به بعض المستشرقين بما يتعلق مثلاً بحادثة النخلة وزواجه من زينب بنت جحش والحروب التي وقعت بينه وبين يهود بني قريظة وقينقاع والنضير في المدينة. ومن المناسب ذكره قبل اختتام الحديث عن الإستشراق والرسول الكريم، الإشارة إلى مدرسة التفسير الإشتراكي في الإتحاد السوفيتي فهي لم تقدّم نتاجات في هذا الحقل ما عدا كتاب شميدت Schmidt في ثلاثينيات القرن العشرين. إذ إنه كان متضلّعاً بالعربية وكتب كتاباً عن الرسول. واعتماداً على ما أورده المستشرق السوفيتي بلياييف Beliayev في كتابه (العرب، والإسلام، الحضارة العربية) يمكن القول بأن الإتجاه العام لتفسير الدعوة الإسلامية كان يؤكد مسألة الصراع الطبقي وسيادة التناقضات الإقتصادية في المجتمع المكّي. وقد كرّر شميدت آراء كتّاب الكنيسة والعصور الوسطى فشكّك بالرسول وصدق دعوته. بينما يميل بلياييف إلى القول بأن الثورة الإسلامية إنما هي ثورة العبيد على أصحاب الأموال والتجارات في المجتمع[١] المكّي.

ما تقدّم ذكره من تدرّج في تطوّر التفكير الإستشراقي والدراسات الإستشراقية حول

---

(١) الكتاب أصلاً باللغة الروسية وقد ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان

Arabs, Islam, and the Arab Caliphate, in the early MiddleAges (London 1969).

ثم ترجم إلى اللغة العربية.

الرسول الكريم والدعوة الإسلامية إنما هي في الواقع تمثّل التطوّر التدريجي للسياسة الأوربية والأمريكية في المنطقة وطبيعة علاقتها بالشرق العربي والإسلامي وبالتاريخ الإسلامي.